مجلة الحكمة للدراسات التاريخية
Eissn :2600-6405 Issn : 2353-0472
المجلد 7/ العـدد: 3 (2019)، ص: 93- 109

جدل التاريخ والسرد عند بول ريكور

الدكتور: بلعاليا دومة ميلود[1]
[1]جامعة خميس مليانة . الجزائر
belaliamiloud@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2019/11/10 تاريخ القبول: 25 /2019/11 تاريخ النشر: 2019/12/01

يبدو أن الاحتفاء بمقولة "السرد" داخل عمارة النص الفلسفي عموما، والنص الفلسفي التاريخي خصوصا، أمر يتنافى مع مستوى المعقولية الذي ادعته الفلسفة لحظة ميلادها كخطاب عقلاني مستقل، حيث حمل هذا الخطاب منذ البداية ما يشبه قرار حظر أو منع بصدد كل استخدام للغة السرد، وكأن كل من يمارس الفهم الفلسفي وفق مقتضياته المفهومية الخاصة به، عليه أولا أن يتخلى عن كل سرد للقصص أو الحكايات. يُستشف ذلك، حسب ما يذكره "هيدغر"[1]، لدى "أفلاطون" في "السوفسطائي"، ولدى "هيغل" حيث صرح في "علم المنطق" بأن "الفلسفة يجب ألا تكون ضربا من الحكي لما يطرء، وإنما معرفة لما هو حق، وانطلاقا مما هو حق، عليها أيضا أن تفهم ما يظهر في الحكي على أنه محض حدوث عابر"[2]، ثم لدى "هيدغر" حينما يؤكد، متابعا أفلاطون، على ضرورة الفصل بين اعتبار الموجود من الناحية السردية وبين إدراكه في وجوده الحقيقي، حيث يقول: " فلسفيا، أول خطوة يجب قطعها من أجل فهم مشكلة الوجود، هي "ألا نحكي قصة"، أي بمعنى ألا نحدد الموجود من حيث هو موجود بواسطة إعادة وصله بموجود آخر كما لو كان للوجود خاصية موجود ممكن"[3].

[1] -M. Heidegger, Etre et Temps, traduit de l'allemand par François Vezin, Gallimard, Paris, 1986, p.29

[2] -Hegel, Science de la logique II, trad. P.J. Labrrière/G. Jarczyk, Paris, Aubier, 1981, p.51

[3] -M. Heidegger, Etre et Temps, Op.cit, p.29-30

على هذا الأساس بدا من غير البديهي أن ينهض بعض الفلاسفة في زماننا هذا، وعلى رأسهم "بول ريكور"، للدفاع عن حضور "السرد" وإعادة اكتشافه كمشكلة فلسفية. ولعل هذا ما يجعلنا نتساءل عن الأسباب التي تقف وراء "إعادة اكتشاف" السرد مع فيلسوفنا "بول ريكور"، وذلك بالنظر لكونها أشبه بالسباحة ضد التيار، خاصة بعد دعاوى موت فن الحكي و"نهاية السرديات الكبرى" في تقرير "ليوتار" (Lyotard) عن حالة المعرفة في الوضع ما بعد الحداثي، حيث يلاحظ أن السمة العامة لما بعد الحداثة هي" فقدان الإيمان بخطاب السرديات (...) وأن الوظيفة السردية فقدت مشغلاتها الكبرى"[4].

1. "بول ريكور" ورهان "عودة السرد":

إن التشخيص المابعد حداثي لوضعية السرد، على غرار تشخيص كل من "ليوتار" و"ولتر بنيامين"[5] (W.Benjamin)، لم يكن ليثني واحدا مثل "بول ريكور" عن عزمه على استعادة التفكير الفلسفي في التاريخ على ضوء السرد، وذلك إيمانا منه أن "لا شيء يجبر التاريخ على أن يكون ملاذا تحتمي بداخله سيادة الوعي

---

[4] - J.F. Lyotard, La condition poste-moderne. Rapport sur le savoir, Editions de Minuit, Paris, 1979,p.7

[5] - لقد حلل بعمق "جان غرايش" أطروحة "ولتر بنيامين" حول "موت السرد"، وذلك على اعتبار كون السرد التقليدي في نظره لم يعد اليوم قادرا على مقاومة طغيان موجة "الإعلام" التي كادت تقضي على كل رغبة في الحكي، وذلك بسبب جاهزية الشروحات التي تقدمها وسائل الإعلام يوميا و باستمرار، لدرجة أنها قتلت الرغبة في الفهم ذاتها. ويرى "غرايش" أن هذا التشخيص يأتي في سياق التأسف عن ضياع الكفاءة السردية، خاصة وأن "بنيامين" لا يشجع هذا الضياع، بل يتسائل عن رهاناته، لأن خلف هذا الضياع تتلاشى قدرتنا على تقاسم وتبادل التجارب، أي القدرة على التواصل: "إذ ما الذي يبقى من تجربة ما إذا ما لم ترو أو تحكى؟". أنظر بهذا الصدد:

Jean Greisch, Paul Ricoeur, L'itinérance du sens, Editions Jérome Million, 2001, p.196

ولمزيد من الاطلاع على أطروحة " ولتر بنيامين" أنظر Walter Benjamin, « Le narrateur », trad. Fr. Maurice de Gandillac, in : Rastelli raconte.et autres récits, Editions du Seuil, Paris, 1987, p.143-178

المطلقة"[6]، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، يرفض أن يكون التأمل الفلسفي يتيما "أوبغير تجذر في اللغة التي قد حدثت والتي قد قيل فيها كل شيء على نحو ما"[7]. هذه اللغة المفترضة مسبقا هي التي تمنح "السرد" وجوده ومشروعيته قبل كل تفكر فلسفي أو غيره، وذلك لأن السرد، كما يقول "جوناتان ري" . مؤكدا قناعته بوجهة نظر "بول ريكور". "هو البنية الأساسية في تجربة الزمن التي ليس لدي ما أقوله عنها حقا"[8]، ومن ثم فإن كل حديث عن التاريخ دون اعتبار للسرد، بحجة العلمية المزعومة، هو حديث مبتور وغير ذي بال. إلا أن هذا الارتباط الجدلي بين التاريخ والسرد، يجب ألا يوهمنا بأن التاريخ والسرد متطابقان كما هو الحال لدى "غالي (Gallie)" مثلا، حيث "يكون التاريخ (History) مجرد ضرب من الحكاية (Story)"[9]، بل إن "بول ريكور" يؤكد على أن هناك مجرد تقاطع بينهما بسبب قدرتهما على «إعادة تصوير (Refiguration) » الزمن"[10]، حتى لا تبقى "التجربة الزمنية "تجربة غامضة، عديمة الشكل، وفي أفضل حال بكماء"[11]، بل ضرورة حملها إلى مستوى الحدث المعقول و الخطاب الدال، ومن ثم شحنها بالمعنى الذي يجعلها قابلة للتواصل البيذاتي، وتاليا انقاذها من أسر هذا التوصيف السلبي الذي يسمها كتجربة زمنية ما قبل سردية (Comme experience pré-narrative).

---

[1]Johann Michel, « Le modernisme paradoxal de paul ricoeur » in : Archives de philosophie, tome 67, 2004/4, p.646

[7] Paul Ricoeur, Philosophie de la volonté, t.II. Finitude et culpabilité, Paris, Aubier, 1960, p.482

[8] جوناتان ري: "السرد والتجربة الفلسفية" في: بول ريكور وآخرون، الوجود والزمان والسرد (فلسفة بول ريكور)، ترجمة وتقديم سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط 1، 1999، ص 115.

[9] Cf. Raymand Aron, « Sory and History » in Leçons sur l'histoire, op.cit, p.217-220

[10] Paul Ricoeur, Temps et récit, tome I, op.cit, p.169

[11] Ibid, p.13

يبدو أن السرد فقط، كما يرى ذلك "جان غرايش" (Jean Greisch)، من حيث هو"تأليف حبكة" أو بتعبير "ريكور"، "عملية حبك"[12] (Mise en intrigue) ، هو وحده الذي بإمكانه "أن يحقق النصر النهائي على خطر اللامعنى المتضمن في هذا التوصيف السلبي للتجربة الزمنية"[13]، إذ بواسطة تدخل "الحبكة السردية" (L'intrigue narrative) فقط يستمد التاريخ الإنساني . من حيث هو موضوع للحكي أو القص بامتياز. شرط إمكان معقوليته في الحاضر، أو بعبارة أخرى، قابلية فهمه ورؤيته كما لو أنه استمرار فعل الحياة عينه، وليس فقط مجرد أثر فائت و منقض، "فالسرد، بحسب "ريكور"، يهب الفهم والرؤية معا"[14] ، ولعل هذا ما جعل "بول ريكور" يلجأ إلى ضرب من التفسير يتجاوز به كلا من حدسية الفهم المباشر للحياة الإنسانية، وعقلانية الشرح التي تقف عند حدود التحليل البنيوي لأنظمة العلامات، إيمانا منه بأن إدراك حركة الحياة وفهم معانيها، يقتضيان وساطة السرد، حيث يتعاضد الشرح والفهم، الذاتي والموضوعي، الداخل والخارج، ويصير بذلك التأويل تدبرا، لا في النص فقط، بل في الحياة ذاتها، إن لم يكن تدبيرا لها أيضا. وعلى هذا الأساس "اختار "ريكور" الدخول عبر

---

[12]- يأتي تفضيل "ريكور" لمصطلح "الحبك" على مصطلح "الحبكة" في سياق ربطه بفاعلية التصوير السردي التي تضطلع بها "المحاكاة 2" (Mémisis II) ، حيث يكون لهذه الأخيرة وظيفة توسطية بين ما يسبق السرد وبين ما يلحقه، وهي ذات الوظيفة التي تمنح للحبكة طبيعة ديناميكية "تتيح لها أن تؤدي، فيما وراء حقلها النصي، وساطة ذات نطاق واسع بين الفهم القبلي والفهم البعدي، إذا جاز لي قول ذلك، لترتيب الفعل وسمات الزمنية". (أنظر: بول ريكور، الزمان والسرد، الجزء الأول، ترجمة سعيد الغانمي وفلاح رحيم، راجعه عن الفرنسية جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2006، بيروت، لبنان، ص 114)، كما يبدو من الضروري الإشارة إلى أن ريكور استلهم هذه الخاصية الديناميكية للحبكة من تعريف أرسطو القائل بأن الحبكة هي تنظيم الأحداث"، وهو التعريف الذي يفهم منه أن الحبكة لا تكتفي بعكس الأحداث على الصعيد الكرونولوجي فقط، بل تحول "الحوادث إلى قصة"، ومن ثم فهي تشابه، في نظر ريكور، عملية الحكم كما يفهمها كانط. للمزيد من التوضيح أنظر: Paul Ricoeur, Temps et récit, tome I, op.cit, p.12

[13] Jean Greisch, Paul Ricoeur, L'itinérance du sens, op.cit, p.146

3Paul Ricoeur, La mémoire, l'histoire, l'oubli, op.cit, p. 341

باب الحياة، وليس عبر باب النص، في معالجته لإشكالية السرد"[15] ، وذلك لكوننا، كما يقول، "لا نروي قصصنا إلا لأن حياتنا، في النهاية، بحاجة لأن تروى، بل وجديرة بأن تروى"[16] .

إن تشابك تصاريف الحياة الإنسانية في التاريخ مع حوادث القصص والحكايات أمر لا ينقص من قيمة الفعل التأريخي بقدر ما يثريه ويخصبه، وذلك بتحريره من محدودية أفق الزمن المنقضي، وإعادة فتح الماضي على أفق جديد هو أفق المستقبل، عبر إحياء إمكانات الماضي المجهضة وطاقاته التي لم تتحقق بعد.

ليس غريبا إذن أن يعيد "ريكور" للسرد مكانته ضمن محفل الكتابة التاريخية المعاصرة، إيمانا بأطروحته القائلة "بأن الأحداث التاريخية لا تختلف في جوهرها عن الأحداث المؤطرة بواسطة حبكة ما"[17]، وبأن "التاريخ الأكثر ابتعادا عن الشكل السردي يظل مرتبطا باستمرار، بالفهم السردي عبر صلة استمداد أو اشتقاق (Un lien de dérivation)، يُعاد بناءها خطوة خطوة، وبتدرج، وفق طريقة ملائمة"[18]. إن هذه الطريقة الملائمة "لا يمكن أن تدين، في نظر "بول ريكور"، إلى ميتودولوجيا العلوم التاريخية بشيء، إنما تدين بالأساس إلى "تفكر من الدرجة الثانية"* حول الشروط القصوى لمادة معرفية، تميل بسبب طموحها العلمي إلى نسيان صلة الاشتقاق التي تستمر مع ذلك في تأمين خصوصيتها كعلم تاريخي"[19]. ولقد بين "بول فاين"(Paul Veyne) هذه الخصوصية عندما صرح

---

[15] J.Greisch, Paul Ricoeur. L'itinérance du sens, op.cit, p.149

[16] Paul Ricoeur, Temps et récit, tome I, op.cit, p.115

[17] Ibid, p.365

[18] Ibid, p.165-166

* يقصد بالتفكر من الدرجة الثانية الخاصية الأساسية للتفكر الفلسفي الأصيل عندما لا يرتبط بموضوع خارجي بقدر ما يرتبط بعملية التفكر ذاتها، إذ هي عملية أشبه بما يمكن أن نسميه بالتفكير المضاعف. لمزيد من الإطلاع على هذه الفكرة راجع: Théodore Litt, Introduction à la philosophie, trad. par PH.Muller, P.Barblan et Y.Robert, Editions L'age d'homme,1983, p.18-19

[19] Paul Ricoeur, Temps et récit, op.cit, p.115

"بأن التاريخ [يظل] رواية حقيقية"[20] طالما أن الحدث ليس فقط ما قد وقع، بل هو ما يمكن أن يروى أو ما تمت روايته في التاريخ الإخباري أو في الأساطير، أي بعبارة مختصرة، لا وجود لحدث إلا كحدث محبوك.

لقد كان من حسنات هذا الطرح أن تم تجاوز حالة السجال الشديد الذي أثارته مدرسة الحوليات الفرنسية بين التاريخ الحدثي و التاريخ اللاحدثي، حيث بدا، وفق تحليل "بول فاين" أنه سجال عقيم، إذ متى فهم الحدث بمقياس "الحبكة" فلا عبرة للقول باللاحدثي، ذلك "أن اللاحدثي ما هو إلا تلك الأحداث التي لم تقدر بعد كأحداث..."[21]، أي التي لم يتم حبكها بعد، أو، بمعنى آخر، التي لا تزال قيد التنافر والتشتت والمصادفة، بينما تصير أحداثا بمجرد وجود الحبكة، أي "ذلك المزيج من الأسباب المادية والغايات والصدف"[22]*. ولعل "بول ريكور" قد تفطن مبكرا إلى أهمية القول بالحبكة في مجال التاريخ، ومن ثم اتخاذها كمقولة مؤسسة، لا للسرد التخييلي فقط، بل للسرد التاريخي أيضا.

غير أن انتباه "ريكور" للبعد التخييلي الذي تنطوي عليه عملية الحبك، جعله يدرك مدى المخاطرة التي قد تنجم عن عدم التثبت من مسألة العلاقة بين مجرد القص أو الحكي وبين فعل التأريخ، إذ أن لهذا الأخير أحكامه ومقاصده التي لا تسمح للمؤرخ بأن يكون مجرد قاص للأحداث، فالمؤرخ هو دوما عرضة للانتقاد والتفنيد، وأن جمهور قرائه هو جمهور حذر، لذلك ينبغي له أن يؤيد بالحجة القاطعة أفضلية التعليل الذي يسوقه، الأمر الذي يجبره دوما على اعتماد الوثائق

---

[20] Paul Veyne, Comment on écrit l'histoire, augmenté de « Foucault révolutionne l'histoire », Paris, Ed. du Seuil, 1971, p.13

[21] Ibid, p.31

[22] Ibid, p.46* يشير "ريكور" إلى تماثل هذا التعريف للحبكة مع التعريف الذي أعطاه هو نفسه للحبكة أيضا حينما اعتبرها "عملية تأليف للا متجانس". أنظر:
Paul Ricoeur, Temps et récit, tomeI, op.cit, p.10

المكتوبة كأساس لكل ادعاءات الحقيقة لديه. لكن بالمقابل لا يلغي "ريكور" أثر فعل السرد في تمثيل وتصوير التجربة الإنسانية وفي إغناء معاني الزمن الإنساني، وهو الأمر الذي يفسر إمكان قيام تواصل تاريخي عبر وساطة فعل السرد القصصي ذاته. فكيف يحدث هذا التواصل على الرغم من تباين أحكام النص التاريخي و أحكام النص القصصي؟

في الواقع إن "ريكور" يستند إلى هرمينوطيقا خاصة به في التمكين لمثل هذا الضرب من التواصل، وهي هرمينوطيقا جديدة "تتوجه إلى مشكلة الزمان والسرد، وتكون فيها العلاقة التي تربط القارئ بالنص، هي العلاقة التي تربط عالم القارئ بعالم النص. والإطار الذي تتحرك فيه هذه التأويلية هو إطار ظاهرياتي يحتذي مفهوم "هوسرل" (Husserl)، وينشق عنه بصورة حركية، عن عالم الحياة الفعلي الواقع بين التاريخي والخيالي في إطار حركات إعادة التصوير[Refiguration] والصياغة التصويرية [Configuration] والتصوير القبلي"[Préfiguration]"[23]، ولعلها الهرمينوطيقا ذاتها التي سعى من خلالها "ريكور" إلى تجاوز التعارض المنهجي بين الشرح أو التفسير وبين الفهم، وذلك من منطلق أن تعاضدهما وحده هو الذي يتيح فرصة فهم الذات أمام النص، ومن ثم استجلاء وجوه القربى المتعددة بين ما يشترعه النص من عوالم خيالية، وبين ما تعرضه التجربة الإنسانية من ممكنات الفعل في الحياة. ولذلك على المؤِول، في نظر "ريكور"، أن يتجاوز التعارض بين الشرح والفهم حتى يتمكن من اكتشاف أساليب أخرى في التعبير عن غنى التاريخ الإنساني، ومن ثم في الكشف عن ضرب من "التوافق" الضروري الذي يقتضيه خطاب "المعنى" في كفاحه المتواصل ضد لا معقولية العنف الناشئة عن الإحساس باللامعنى في التاريخ، وضد خطر السقوط

[23] "دون إهده" : "النص والتأويلية الجديدة" في: بول ريكور وآخرون، الوجود والزمان والسرد (فلسفة بول ريكور)، تحرير ديفيد وورد، ترجمة وتقديم سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البضاء، بيروت، ط1، 1999، ص 171

في العدم المحض بسبب طغيان فكرة "النهايات" (نهاية السرد، نهاية التاريخ، نهاية الإنسان، نهاية الأرض إلخ...) التي تجعل من القصص، كما يلاحظ ذلك "بول ريكور" في أعقاب قراءته لكتاب "الإحساس بالنهاية"[24] "لفرانك كرمود" (F.Kermode)، يتأرجح بين كونه شكلا من المواساة أمام الموت، ومن ثم "فهو [أي القصص] "يكذب ويخدع، بقدر ما يواسينا، وبين كونه ليس اعتباطيا بقدر ما يستجيب لحاجة لا حكم لنا عليها، أي الحاجة إلى طبع الفوضى بطابع النظام، واللامعنى بطابع المعنى، والتنافر بالتوافق"[25] .

إن "بول ريكور" لا يستسلم لهذا الضرب من الإحساس الكارثي بموت السرد، لأنه بخلاف "فرانك كرمود"، لا يستسلم للحل المتسرع لمشكلة العلاقة بين السرد التخييلي أو القصصي وبين الواقع، إذ يظل دوما هناك تباعد أو انحراف ما بين الواقع والخيال، وأن السرد التخييلي ليس مطالبا بأن يقطع صلته بالواقع وبالتاريخ الفعلي للبشر، ولكن ليس مطالبا أيضا بأن يحاكيه محاكاة الشيء لظله، بل إنه مطالب بأن يقوله على نحو آخر، ومن ثم فهم الحياة الإنسانية فهما آخر. لقد آمن "ريكور" بأن خطاب السرد القصصي أو التخييلي ليس مجرد خطاب تحسيني، ينظر إليه في الغالب على أنه مبتور الصلة بالعالم التاريخي الواقعي، بل هو أسلوب آخر في القول "يحمل إلى اللغة أشكالا وصفات وقيم للواقع لا يمكن بلوغها بواسطة كلام الوصف المباشر، والتي لا يمكن قولها إلا بفضل اللعبة المعقدة بين عملية التلفظ الاستعاري وبين الاختراق المضبوط للمعاني المألوفة في كلامنا"[26]. وعلى هذا الأساس فإن مطلب "التوافق" (L'exigence de la concordance) الذي يقتضيه خطاب السرد القصصي يأخذ كامل معناه في

[24] Frank Kermode, T he sens of an Ending, Studies in the theory of Fiction, Londres, Oxford, New York, Oxford University Press, 1966

[25] Paul Ricoeur, Temps et récit, tome II, La configuration dans le récit de fiction, Editions du Seuil, 1984, p.53

[26] Paul Ricoeur, Temps et récit, tome I, op.cit, p.11

أسلوب "الحكي" أو "السرد القصصي" باعتبار كونه سردا تخييليا (Récit de fiction)، وبهذا المعنى لا يمكن أن نتحدث عن "موت السرد القصصي"، بالرغم من وجود علامات على تراجعه، إلا أنه ليس "تراجع اللاعودة"، بما أن الحاجة إلى البحث عن التوافق تظل سمة ملازمة للعقل البشري في سعيه ضد فراغ المعنى، ولعل هذا ما يبرر كون "البحث عن أشكال التوافق هو بحث يشكل بالنسبة "لريكور" جزءا من المفترضات القبلية للخطاب والتواصل"[27]، الأمر الذي سيحول، في نظر "ريكور"، دون أي ادعاء بالطابع النهائي لموارد المعقولية التي يتيحها النموذج السردي عبر البحث عن أشكال جديدة للتوافق في ظل تجدد أشكال الحياة الإنسانية ذاتها.

بناء عليه، فالحاجة إلى السرد تظل قائمة متى ظلت حياتنا بحاجة إلى أن تروى، ومتى ظلت قصصنا قابلة بدورها لأن "تعاش على نحو متخيل"[28] ، بل وبالرغم من أن نماذج الحكي التقليدية في تراجع عن دورها الريادي، إلا أن "بول ريكور" يؤمن بأن علينا أن نثق بمطلب التوافق الذي صار يهيكل الآن توقعات القراء، وأن نؤمن بأن ثمة أشكالا سردية جديدة، لا نعرف كيف نسميها بعد، هي في طور الولادة، وأنها ستشهد على كون الوظيفة السردية بإمكانها أن تتحول، ولكن ليس بإمكانها أن تموت. فنحن لا نستطيع أن نتخيل ما سيصير عليه حال الثقافة عندما يجهل المرء معنى فعل الحكي"[29].

2. التاريخ الإنساني وفاعلية السرد التخييلي:

إن اهتمام "ريكور" الشديد بالتأسيس لضرب من التواصل بين الأشكال المختلفة للتجربة الزمنية"، وبين " مجموع البنى السردية" التي تظهر فيها، كما

---

[27] Paul Ricoeur, Temps et récit, tome II, op.cit, p.56

[28] بول ريكور :" الحياة بحثا عن السرد" في: بول ريكور وآخرون، الوجود والزمان والسرد (فلسفة بول ريكور)، ترجمة وتقديم سعيد الغانمي، مصدر سابق، ص 49

[29] Paul Ricoeur, Temps et récit, tome II, op.cit, p.58

يتضح ذلك من خلال مشروعه الفلسفي الضخم في "الزمان والسرد"، هو اهتمام يشهد على مدى حرص "ريكور" على إعادة تفعيل نشاط التفكر الفلسفي في التاريخ من منطلق عملية استثمار ذكية لموارد جديدة للعقلانية السردية، ظلت مستبعدة من مجال التجربة الفلسفية، على الأقل تجربة الفلسفة الحديثة، وهذا بالرغم من كون هذه الأخيرة طافحة بالسرد، بل يمكن أن نقول مع "جوناتن ري"، أن السرد هو ما يمثل "عصاب الحداثة والفلسفة الحديثة: كلتاهما تدعي أنها نفي للسرد، الذي يشكل في حقيقة الأمر عنصرها الأساسي، فكلتاهما عرضة للإكراه السردي الذي لا نستطيع السيطرة عليه ولا الاعتراف به"[30] .

أما "ريكور"، ووعيا منه بضرورة وجود "مصادر لا فلسفية للفلسفة"[31] تستمد منها طاقتها على استئناف التفكر، ومن ثم حيوية نشاطها التواصلي مع غيرها من المعارف، فإنه (أي ريكور) يرى أن نتاجات الفكر السردي قد تقع، بهذا المعنى، مبدئيا خارج المضامين الحصرية للفلسفة، لكن لا يمكنها أن تفلت من الممارسة الفلسفية حين تفهم بمعنى "استعادة (Reprise) اللا . فلسفي ضمن الفلسفة"[32]، ولذلك فلا عجب أن نجد "ريكور" يحث على استثمار منجزات الفكر السردي الذي يتوسل بالقصص و الأسطورة لاستكناه معاني الوجود في غير ما تخبر عنها وثائق التاريخ والشروح الرسمية للمؤرخين، الأمر الذي يستدعي في نظر"ريكور" قيام تأويلية نقدية للتاريخ تتوسل بالسرد التخييلي أو القصص من أجل تجاوز ادعاءات التاريخ العلموي الذي يقطع مع السرد ومع كل موارد التخييل التي يراها "بول ريكور" ضرورية، لا لحفظ الكتابة التاريخية من مزالق هيمنة الماضي والتعصب له، بل لتمكين هذا الماضي نفسه من الانعتاق من

[30] "جوناتان ري": "السرد والتجربة الفلسفية" في. بول ريكور وآخرون، الوجود والزمان والسرد، مصدر سابق، ص 120

[31] Paul Ricoeur, Lectures 3. Aux frontières de la philosophie, Seuil,1994, p.149

[32] Ibid., p.151

"ماضويته" وفتحه على أفق المستقبل، حيث يستعيد التاريخ الإنساني هويته كتاريخ إنساني لم يكتب بعد في جميع وجوهه، ولم يفصح بعد عن جميع مكنوناته، ذلك أن التاريخ الحقيقي لا يكتفي بما رواه المسيطرون ثم دونوه وأولوه على أنه تاريخ منقضي، بل التاريخ الحقيقي هو الذي يعلمنا أن كل ما انقضى لا يزال يحتفظ لنفسه بأفق رحب من الإمكانات التي لم تستثمر بعد والتي يمكن أن تجددها القراءة التاريخية عن طريق إعادة تأويل مواقع من الماضي، كان المستقبل فيها ما يزال في مكنة الآخرين التحقق منه فعليا*.

في هذا الصدد بالذات يسعى "ريكور"، عبر هرمينوطيقاه النقدية، إلى ردم الفجوة الهائلة بين "التأريخ" و"التخييل"، أو بعبارة أخرى، بين "واقع" التاريخ (La réalité de l'histoire) وبين "لاواقع" التخييل (L'irréalité de la fiction)، وذلك باقتراحه الاشتغال على ما اصطلح عليه "بالتقاطع بين التاريخ والقصص"[33]، مدركا في ذات الوقت مدى ما ينطوي عليه هذا المسعى من مجازفة بالمفهوم الأصيل الذي يحرك عملية البحث التاريخي برمته وهو مفهوم "الحقيقة"[34]، أي حقيقة ما حدث في الماضي. غير أن "ريكور" سيتفادى المزالق التي يمكن أن تنجم عن هذه المجازفة، وذلك بدعوته الحصيفة إلى استعادة التفكر في العلاقة بين

---

[1] * يمكن أن ندرج في هذا المعنى ما كان قد أشار إليه "نيتشه" قائلا: " لا شيء يرجى من المعرفة بالماضي ما لم تكن، في جميع الأزمنة، في خدمة الماضي والحاضر، وليس مطلقا في إضعاف الحاضر وفي اجتثاث المنابت الحية للمستقبل". أنظر:

Nietzsche, Seconde considération intempestive. De l'utilité et de l'inconvénient des études historiques pour la vie, traduit par Henri Albert, Flammarion, aris, 1988, p.103

Paul Ricoeur, Temps et récit, tome III , op.cit, p.329

[34] لقد انتبه "بول ريكور" إلى خطورة مسعاه منذ كتابته الجزء الأول من ثلاثيته 'الزمان والسرد"، حيث أشار إلى ذلك قائلا: "إن إقحام التاريخ في الفعل وفي الحياة، وقدرته على إعادة تصوير الزمن، من شأنهما طرح سؤال الحقيقة في التاريخ. وهذا السؤال جزء لا يتجزأ مما سميته بالإحالة المتقاطعة بين دعوى الحقيقة في التاريخ و بين دعوى الحقيقة في التخييل [أو القص]"

. أنظر: Paul Ricoeur, Temps et récit, tome I, op.cit,p.167

التاريخ والتخييل على خلفية ضرب من الأنطولوجيا التأويلية* (Une ontologie herméneutique) تتسع بمقتضاها إمكانية التعاون بين التمثيل التاريخي وبين التخييل القصصي في الكشف عن العمق الزمني للتجربة الإنسانية، إذ أن تحليل بنية الوجود ذاتها تقتضي أن يحدث مثل هذا التعاون، وهذا من منطلق أن فهم الوجود الزماني يمر عبر وساطة السرد من حيث أن هذا الأخير، ليس مجرد نقل إخباري بسيط للأحداث، بل من حيث هو قدرة على إعادة تصوير التجربة الزمنية، "وهذه القدرة هي التي تجعل من حياتنا ذاتها محصلة كل القصص الحقيقية أو التخيلية التي نحكيها عنها"[35]. فكيف يحدث هذا التعاون أو هذا التقاطع، بالرغم مما يبدو من تعارض قوي بين الواقع التاريخي ولاواقع التخييل أو القصص ؟

إن "ريكور" يدرك بوضوح هذه الصعوبة، وفي ذات الوقت يسلم بهذا التعارض المبدئي بين التأريخ والتخييل، ولكنه يدرك بالمقابل أيضا أن هذا التعارض ليس قدرا على التاريخ ولا على السرد، بل هو تعارض نشأ داخل ثقافة أو لنقل تراث فكري معين في أوربا تحديدا، أريد له في فترة ما من فترات تطوره أن يستبعد من مجال المعرفة العلمية للتاريخ كل ما من شأنه أن يرتبط بالصناعة الأدبية، وعلى رأسها فنون السرد التخييلي من أساطير وحكايات و قصص، لا لشيء إلا لإضفاء المشروعية العلمية على التاريخ و"خلق، كما يقول "ميشال دو سارتو" (M. de Certeau)، ضربا من الفارق بين خطاب الإسطوغرافيا كخطاب

---

[1] تختلف الأنطولوجيا الريكورية عن أنطولوجيا هيدغر بدخول عنصر السرد، وذلك على اعتبار أن السرد * يشكل الوساطة الضرورية بين الوجود والزمان، الأمر الذي يبرر ، بالنسبة لريكور، عدم إمكانية قيام أنطولوجيا مباشرة على غرار أنطولوجيا هيدغر. فتأويل الوجود . في . العالم على ضوء السرد هو بمثابة فهم لهذا الوجود باعتباره وجودا مع الآخرين وبهم ومن خلالهم، وليس مجرد وجود . نحو. الموت... لمزيد من الاطلاع حول هذه النقطة يمكن الرجوع إلى التقديم التي وضعه سعيد الغانمي لترجمة كتاب : بول ريكور وآخرون، الوجود والزمان والسرد، مصدر سابق، ص 28، 29

Cf. Olivier Abel et Jérôme Porée, Le vocabulaire de Paul Ricoeur, op.cit, p.61

عالم (Comme discours savant) وبين الخطاب العادي" (Discours ordinaire)[36] ، وعلى هذا الاعتبار وسع "ريكور" من نظرية للقراءة أو للتلقي، لا تكون معنية فقط باستقبال النصوص الأدبية، لكن تعنى باستقبال جميع أشكال الكتابة، بما في ذلك كتابة التاريخ. يقول "ريكور" بهذا الصدد: " في إطار مثل هذه النظرية الموسعة عن القراءة تتحول عملية القلب من التنافر إلى التقارب في العلاقة بين السرد التاريخي والسرد التخييلي"[37]. لكن إذا كانت هذه النظرية تساعد في إحداث التقارب بين التأريخ والتخييل، فإن ما يبقى عالقا هو "التقاطع" بينهما.

يعالج "بول ريكور" هذه المسألة بافتراض وجود "مرجعية مشتركة" للتاريخ والتخييل، تتمثل أساسا في "التجربة الزمنية العميقة"، هي التي تسمح بتشييد التقاطع بينهما، لدرجة يمكننا، حسب "بول ريكور"، أن نتحدث، من جهة عن "الطابع شبه التخييلي للتاريخ (Quasi fictif de l'histoire) وعن الطابع شبه التأريخي للتخييل (Quasi historique de la fiction) "[38] من جهة أخرى.

فمن ناحية يتقاطع التخييل مع التاريخ بسبب تعذر تمثيل الماضي التاريخي "كما كان واقعا فعليا"، أو بعبارة أوفى، تعذر استعادة الماضي الواقعي كما حدث يقينا، بل وحتى إذا ما تمت هذه الاستعادة في بعض الجوانب بشكل مفيد، فإن اختبار مدى إتقان هذه الاستعادة وكذا تنويعاتها، لا يتم إلا بالتخييل، " ذلك أن عالم التخييل هو مختبر للأشكال، نحاول داخله إنجاز تشخيصات ممكنة للفعل، من أجل اختبار التماسك والمعقولية. وهذا التجريب بواسطة النماذج (البراديغمات) يعود إلى ما أسميناه بالمخيلة المنتجة. وعلى هذا المستوى يكون المرجع وكأنه معلق: فالفعل المحاكى هو فعل محاكى فقط، أي أنه خدعة مصنوعة

[36] Cf. Michel de Certeau, « L'histoire, science et fiction » dans : Le genre humain 7-8. La vérité, Editions Complexe, printemps-été 1983,p.147
[37] Paul Ricoeur, Temps et récit, tome III , op.cit, p.330
[38] Ibid., p.345

(...) وعالم التخييل في هذه المرحلة من التعليق ما هو إلا عالم النص وعرض النص وكأنه عالم.

لكن تعليق المرجع لا يكون مجرد لحظة توسط بين ما قبل فهم عالم الفعل [Précompréhension du monde de l'action] وبين تحرير الواقع اليومي الذي ينجزه التخييل نفسه. ذلك أن عالم النص، لأنه عالم، فإنه يدخل بالضرورة في تصادم قوي بالعالم الحقيقي، لكي يعيد "صنعه" إما بأن يؤكده وإما بأن ينكره "[39] . وعلى هذا النحو يبين التخيل عن إمكانات في ابتكار صور جديدة للواقع، وذلك بحكم علاقة التوتر التي تنشأ بين عالم النص وبين عالم القارئ. فعالم التخييل يظل عالما معروضا في النص ولكن لا يفقد صلته بواقع الحياة الفعلي للقارئ، "وهذا الاتصال المستمر بواقع الحياة هو الذي يملي عليه أن ينعتق من هذا الواقع ليصوره تصويرا جديدا يروم به أن يغير الواقع الإنساني. ولذلك يكتسب النص دعوة فريدة على قدر ما يسهم في تغيير الواقع"[40]. ولعل هذه القدرة للتخييل على تغيير الواقع التاريخي أو الفعلي للإنسان هي ما جعلت "ريكور" يؤمن بالدور التخييلي للغة ذاتها، حينما تعمل على إحداث علاقة توتر بالواقع مثلما هو الحال في لغة الفن، حيث يمكننا هذا التوتر من إعادة ترتيب حياتنا وفق مخططات لامتناهية لقراءة نصوص الواقع، ومن ثم لنصوص التاريخ، بغرض إغناء تجربتنا الزمنية وتوسيع دائرة انتماءنا ليشمل عالم وجودنا الإنساني ككل. بهذا تأخذ مقولة الشاعر"هولدرلين"، كما أوضح ذلك "هيدغر"، معناها الكامل:

---

[39] - بول ريكور، من النص إلى الفعل. أبحاث التأويل، ترجمة محمد برادة . حسان بورقية، دار الأمان، ط1، 2004، الرباط، المغرب، ص 12. وانظر أيضا النص الأصلي: Paul Ricoeur, Du texte à l'action.op.cit, p.17-18

[40]- أنظر: مشير باسيل عون، الفسارة الفلسفية: بحث في تاريخ علم التفسير الفلسفي الغربي، دار المشرق، ط1، 2004 ، لبنان، ص 190

"إن اللغة هي الأكثر خطورة من بين جميع النعم التي مُنِحها الإنسان: حتى يكون شاهدا على وجوده"[41] .

أما من ناحية ثانية (أي في حالة الطابع شبه التأريخي للتخييل) فإن "ريكور"يشترع إمكانية أرخنة السرد التخييلي[42] (L'historisation de la fiction) ، وذلك من منطلق افتراضه أن السرد القصصي يحاكي السرد التاريخي. إذ يمكن القول إن رواية شيء ما تعني روايته كما لو كان ماضيا"[43]. فهذا الماضي الشبيه بالماضي الفعلي، أو بتعبير "بول ريكور" "الشبه . ماضي" (Quasi passé) الذي يحيل عليه السرد التخييلي، هو الذي يولد ما يسميه "ريكور" في إثر أرسطو "احتمال المطابقة" مع ما حصل سابقا، طالما أن رواية الماضي "كما لو أنه ماض" (Comme si passé) من شأنها أن تحدث أثرا في المتلقي، شبيه بأثر الحدث التاريخي الفعلي، وهو ربط المعاصرين بالأسلاف على نحو يجعل من الشعور بالدين صوب أناس الماضي والموتى، هو المقابل الضروري لاستحالة إعادة إحياء الماضي كما وقع فعلا، ومن هنا فإن السرد التخييلي في القصة أو الرواية لا يفسد وظيفة التمثيل التاريخي بقدر ما يمنحها عمقا أنطولوجيا، ما كانت لتتوفر عليه لو بقيت رهينة الحكم التوثيقي وحده، ذلك أن عالم "شبه . الماضي" الذي ينشره النص التخييلي لا ينتصب كعالم مضاد للماضي الفعلي بقدر ما يعينه على تحرير ذاته من أسر واقعيته الفجة من جهة، ومن ماضويته المطلقة من جهة ثانية، فوساطة السرد التخييلي هي التي "تصل" بين الماضي التاريخي من حيث هو فضاء التجربة (Espace d'expérience) وبين الحاضر التاريخي من حيث هو

---

[41] -« C'est pourquoi le plus dangereux de tous les biens, le langage, a été donné à l'homme … : pour qu'il témoigne ce qu'il est » (IV, 246).
Cf. M. Heidegger, « Holderlin et l'essence de la poésie », trad. Henri Corbin, in : M. Heidegger, Approche de Holderlin, Traduit par Henri Corbin et autres, Gallimard, « Classiques de la philosophie », 1962,p.41

[42] -Paul Ricoeur, Temps et récit, tome III , op.cit, p.342

[1] - Ibid,p.343

أفق الانتظار، إذ في الوقت الذي تميل فيه التجربة إلى التجميع والانكفاء، يميل الانتظار عبر وساطة التخييل (La médiation de la fiction) إلى نشر الإمكانات المستقبلية التي لم تدمج في التجربة بعد، ومن ثم يفجر المنظورات، وبفعل هذا التقاطع بين ما يمكن أن ندعوه مع "ريكور" "أَخْيلَة التاريخ" (Fictionalisation de l'histoire) وبين "أرخنة التخييل" (Historicisation de la fiction)، ينتقل مفهوم التاريخ ذاته من مجرد فعل تأريخ إلى "نمط وجود" تاريخي، أي الانتقال من التاريخ "كخطاب" إلى التاريخ "كعالم".

من هنا نفهم لماذا يتداخل التأويل الذي اقترحه "ريكور" للصفة "شبه . التاريخية" للسرد القصصي مع تأويله المقترح للصفة "شبه . التخييلية" للماضي التاريخي. "إذ لو صح أن إحدى وظائف السرد ذات العلاقة بالتاريخ تتمثل في أن يطلق، استرجاعيا، بعض الإمكانيات التي لم تتحقق فعليا في الماضي التاريخي، فإن القصص نفسه قادر على أداء وظيفته التحريرية بسبب طبيعته الشبه . تاريخية. بهذه الطريقة يصبح "شبه . الماضي" في القصص وسيلة استكشاف الإمكانيات المدفونة في الماضي الفعلي. إذ يتضمن "ما كان يمكن أن يحدث" . أو الممكن على حد تعبير أرسطو. كلا من احتمالات الماضي "الواقعي" والاحتمالات "غير الواقعية" في السرد الخالص"[44]. وباختصار يصل "ريكور" إلى القول بأن في هذا التداخل المتبادل وفي تغيير الأمكنة [بين التاريخ والتخييل] يتأصل ما نسميه في العادة بالزمن الإنساني، حيث يتحد تمثيل الماضي في التاريخ بالتنويعات الخيالية للسرد"[45] .

أخيرا يمكن القول، مع كل من م. فوسال (M. Foessel) وأ.مونجان (O.Mongin)، أن "ريكور"، "باستغلاله للعلاقة الثنائية بين "عملية

[44] بول ريكور، الزمان والسرد، الجزء الثالث، ترجمة سعيد الغانمي، مصدر سابق، ص ص 288، 289.
[45] المصدر نفسه، ص 289

الحبك" (La mise en intrigue) وبين "فن الحكي"(L'art de raconter)، تمكن من استكشاف الطريقة التي يصير بها إبداع تجربة جديدة للزمن أمرا ممكنا بواسطة السرد التخييلي"[46].

[46] M. Foessel, O.Mongin, « Aux frontières de la philosophie », in : La pensée ricoeur, Esprit, op.cit, p.19